الفصل الأول

مدخل نظري

علم اللغة النصي فرع جديد من فروع علم اللغة المعاصر، فقد اتجهت الدراسات اللغوية الحديثة إلى دراسة النص دراسة كلية في ضوء العلاقات التي تربط بين أجزائه والعوامل المؤثرة في بنيته الكلية سواء أكانت مؤثرات لغوية أم غير لغوية، فقد بحث العلماء المؤثرات التي تشارك في بناء النص [١] .

وهو فرع من اللسانيات الحديثة [٢] أضاف إلى البحث اللغوي جوانب جديدة أسهمت في تحليل النصوص وساعدت في تطورها وموضوع هذا الفرع من علم اللغة النص اللغوي والعناصر التي أسهمت في إنتاجه، فيدرس تركيب النص، ويدرس أيضاً عناصر التوظيف الاتصالي (وسائل الاتصال)، فالنص مجموع التراكيب والإشارات الاتصالية التي ترد في تفاعل تواصلي، فجمع علم اللغة النصي بين علم اللغة الجملي (علم النحو) وعلم الاتصال [٣] .

وهذا الاتجاه ينحو إلى دراسة كلية للنص، فيدرس الجمل في ضوء علاقاتها بالنص، وظهر ما يعرف بنحو النص، وهو النحو الذي يدرس النص في ضوء وحدته اللغوية الكبرى، فيحلل الجملة في إطار علاقتها بما يجاورها ويدرس التشابك بين الجمل، ويدرس الوظيفة الدلالية للعناصر النحوية ويربطها بمضمون النص الكلي [٤] ، وهذا يستند إلى علم اللغة الوصفي وعلم اللغة الوظيفي وعلم اللغة التركيبي (البنائي)،

---

(١) ارجع إلى: مدخل إلى علم اللغة النصي، هاينه وفيهفيجر، ترجمة الدكتور فالح بن شبيب، جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م ص ٧ وما بعدها. وعلم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الدكتور سعيد حسن بحيري، مكتبة الأنجلو ط١/١٤١٣، ١٩٩٣م ص ٣ وما بعدها . ولغة الخطاب السياسي، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥م، ص٤٣ .

(٢) ترجع نشأة علم اللغة النصي في الغرب إلى النصف الثاني من القرن العشرين فهو أحدث فروع علم اللغة، وقد ازداد هذا الفرع تطوراً في نهاية الستينات ومازال في تطوره. ارجع إلى: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، الدكتور سعيد حسن بحيري، ط١/١٤١ – ١٩٩٣م، مكتبة الأنجلو المصرية ص ٣ .

(٣) ارجع إلى: مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر، ترجمة الدكتور فالح بن شبيب، جامعة الملك سعود ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م ص ٧ ، ٨، ظهر في كتب المحدثين نحو الجملة ونحو النص، ويراد بنحو الجملة المفهوم الشائع للنحو .

(٤) ارجع إلى: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص٧ ، ٨ ، ٩ ، وعلم لغة النص، الدكتور سعيد بحيري، ص ٣، ٤، ولغة الخطاب السياسي، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ٤٣، ٤٤، وارجع إلى نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، الدكتور مصطفى النحاس، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط١/٢٠٠١م ص ٤ .

فقد أسهمت هذه العلوم في تحليل النصوص. والنص يتجاوز مفهوم الجملة ومعناها الحرفي إلى مجموع الجمل التي تؤلف فكرة أو موضوعاً، والجملة بمعنى النص لا تفيد موضوعاً تاماً، فالنص بناء متكامل تشكله مجموعة من الجمل وتسهم فيه عناصر خارجية ويدور في فلك موضوع، وهذا النوع يمكن التعرف على ملامحه اللغوية والاتصالية خلافاً للنص بمعنى الجملة لا يفي الموضوع أو البحث.

وقد نشأ علم اللغة النصي في الغرب في النصف الثاني من الستينات وتطور البحث فيه ، وقد ساعد في ظهوره تطور البحث في الاتصال اللغوي وتحليل النصوص الذي ظهر في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، فقد اهتم العلماء بالنص وأبرزوا الطبيعة الكلية للنصوص والعوالم التي تدخل في تكوين نسيج النص، وأسهم فيه أيضاً التفاعل بين حقلي الأدب واللغة وظهور اللسانيات الحديثة والأسلوبية التي جمعت بين الأدب واللغة والبلاغة [١] .

والبداية تلزمنا أن نبحث مفهوم النص Textus الاسم اللاتيني، ويعني النسيج أو الأسياخ المضفرة من الفعل اللاتيني Texere جَدَل، نَسَجَ [٢] ، وهذا المفهوم يتجاوز مفهوم الجملة الضيق إلى مفهوم يتجاوز الإسناد فيها إلى ظروف إنتاجها نحو: (الله أحد) نص باعتبار معناه والإسناد وأسباب نزوله وزمنه ومن نزل فيهم، وتجريده من هذه العناصر يضيق معناه في المعنى اللغوي والإسناد، فالجملة تكون نصًا في ضوء ظروف إنتاجها ومعناها و عناصرها [٣] .

والنص يعني الشكل اللغوي الثابت منطوقًا أو مكتوبًا، فالمحفوظ نص والمقروء نص والمسموع نص عن قائله فيروى بلفظه فيكون نصًا [٤] .

وهذا المفهوم يقترب من المفهوم الغربي، فقد عرفه يول وبراون «أنه التسجيل الكلامي لحدث تواصلي» [٥] ، إنه يعني الشكل الثابت المحفوظ، ويعني جملاً تشكل

---

(١) ارجع إلى: نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، الدكتور مصطفى النحاس، ص ٤ ، ٥ ، وبلاغة الخطاب وعلم النص، الدكتور صلاح فضل، مؤسسة المختار، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي، ص ٤، ولغة الخطاب السياسي، الدكتور محمود عكاشة، ص ٤٤، ٤٥ .

(٣) ارجع إلى: معنى نص في معجم لسان العرب، مادة نصص، والكليات، الكفوي، ط مؤسسة الرسالة، ص ٩٠٨، ولسانيات النص، محمد الخطابي، المركز الثقافي العرب، بيروت ص ٧، ٨ .

(٤) ارجع إلى: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص ٤ ، ٥ .

(٥) تحليل الخطاب، ج . ب. براون، وج . يول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، ط جامعة الملك سعود، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م، ص ٢٢٨ .

نصًا يعتمد على علاقات الترابط[1] ، وهذا المفهوم يختلف عن مفهوم الجملة: «الجملة عبارة عن فكرة تامة أو تتابع من عناصر القول ينتهي بسكتة، أو نمط تركيبي ذو مكونات شكلية خاصة[2]، أو القول المفيد الموجز نحو: جاء زيد، استقم، زيد شجاع، محمد في البيت، وهذا التركيب الشكلي القصير المكون من موضوع ومحمول لا يشكل نصًا متكاملاً، فالنص سلسلة متماسكة من الأجزاء Frogments في صور جمل لها نظام فعال Actual system وله مضمون عام وليس له نظام افتراضي Virtual system كالجملة [3]، فالجملة كيان قواعدي شكى، والنص شكل لغوي يتصل بموقف ويتفاعل مع العالم في زمن إنتاجه، ويفسر في ضوء بنيته اللغوية وظروف إنتاجه، وقد يكون هذا النص قصيراً في شكل جملة، وقد يكون طويلاً في شكل رسالة، أو عمل أدبي.

وذهب بعض العلماء إلى أن ما قدم حتى الآن من إسهامات في دراسة علم اللغة النصي لا يمثل نظرية نصية متكاملة بعيدًا عن علم اللغة، فدراسة النص دراسة كلية فرع من علم اللغة [4] .

والباحثون يجتهدون في وضع أسس تحليل النصوص، وقد حال بينهم وبين ذلك تأثرهم بالمناهج الحديثة واختلاف مشاربهم ورؤيتهم في تحليل النص، والخلاف قائم بين الغربيين ، وتولاه عنهم من تأثر بهم من العرب.

وهنالك علاقة بين البلاغة والتحليل النصي، فعناصر التحليل بها عناصر بلاغية، ومفهوم البلاغة يعادل مفهوم علم اللغة النصي عند بعض الغربيين غير أنهما في الحقيقة يختلفان في المنهج والأدوات والتحليل والأهداف، فالبلاغة عند فان دايك كانت تمهيدًا لظهور علم اللغة النصي، فهي التي أرست مبادئ هذا العلم، فالبلاغة تصف النصوص وتحدد وظائفها المتعددة، بيد أن علم اللغة النصي أكثر عمومًا من البلاغة

---

(١) نفسه ص ٢٢٨، وقد نقل المؤلفان عن هاليداي ورقية حسن عن كتابهما **"chesion in En English"**

(٢) النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة الدكتور تمام حسان، ط١٤١٨/١هـ ١٩٩٨م، عالم الكتب ص١٢٧ ، وارجع إلى تعريف الجملة عند النحاة.

(٣) فرق دى بوجراند بين النص والجملة . انظر النص والخطاب والإجراء، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١.

(٤) ارجع إلى: مدخل إلى علم اللغة النصي ص ٨ ، والنص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ص ١٢٧ – ١٧٠ و١٧١ و٢٤٨. وارجع إلى: تحليل الخطاب، براون ويول، ص ٢٢٨ وما بعدها.

التي ترتبط بأشكال أسلوبية خاصة وترتبط بوظائف اتصالية ووسائل إقناعية [١] .

والبلاغة العربية عالجت النصوص في ضوء سياقها اللغوي وسياقها الخارجي وقد أرسى أسس هذا المنهج مفسرو القرآن الكريم الذين فسروا النصوص في ضوء المعنى اللغوي المعجمي ثم المعني السياقي (علاقة اللفظ بما جاوره في الجملة ثم علاقة الجملة بما جاورها من الجمل الأخرى التي جاءت في سياق المعنى)، ثم بحثوا أسباب نزول النص وزمنه ومكانه ومن نزل فيهم[٢]، وهذا مذهب الفقهاء في استنباط الأحكام من النصوص وتطبيقها، وبحثوا إلى جوار ما سبق من نزل فيهم الحكم وملابساته وطبيعة المكان والزمان وأحوال المجتمع وظروفه.

ومن يطالع كتابي البرهان في علوم القرآن للزركشي والإتقان في علوم القرآن للسيوطي يعلم أن علماء التفسير[٣] استوفوا منهج علم اللغة النصي الحديث وتفوقوا عليه من قبل أن يظهر في الدراسات الحديثة. وقد توجهت الدراسات البلاغية إلى النص نفسه فجعلته موضوع بحثها، فدرسته دراسة كلية بيد أنها لم تتناول المؤلف؛ لأنه خارج النص واكتفت بذكر شيء عن سيرته وسبب قوله النص ومن قيل فيه وزمن قيله ومكانه، وهذا خارج تفسير النص الأدبي بيد أن المفسرين ربطوا تفسير النصوص بهذه العناصر، وضعفوا التفاسير التي فسرت النص القرآني مقطوعة عن سبب نزوله ومن تعلق بهم النص ومكان نزوله زمانه [٤]. وهدف المفسر المعنى العام لبيان الحكم والقصد، وهدف البلاغي العناصر البلاغية المؤثرة والمشاركة في المعنى، وبحث أسباب قوتها وتأثيرها فى المتلقي، والتأثير مفتاح الإقناع، والبلاغة فن الإقناع الجيد، لما

---

(١) ارجع إلى: بلاغة الخطاب وعلم النص، الدكتور صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢م ، ص ٢٥٣ ، وعلم لغة النص ص ٦، والتحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ص١٦٠، ١٦٢.

(٢) ارجع إلى: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، الهيئة العامة للكتاب، الجزء الثاني. لقد بحث العلماء أسباب نزول الآيات التي تعلقت بموقف أو حدث، وهي تمثل نصوصًا لها مضمون واحد ولم يقفوا عند المعاني المعجمية بل تجاوزوها إلى ظروف نزول الآيات ومن نزلت فيهم وأسباب النزول.

(٣) مصطلح التفسير أوسع من شرح معنى اللفظ، فالتفسير المعنى العام للنص في ضوء العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية (ظروف نزوله، وليس إنتاجه فقد سبق في اللوح المحفوظ) ، وشرح معنى اللفظ لا يتجاوز المعنى المعجمي ومعنى السياق اللغوي الذي جاء فيه اللفظ .

(٤) ارجع إلى: ما ذكره السيوطي من تفاسير نصية جاوزت المراد،لأنها لم تعرف أسباب النزول الإتقان جـ٢/١١١:١٠٨ .

توظفه من عناصر نصية واتصالية في الخطاب[١] ، وترجع بلاغة المتكلم إلى قدرته على التأثير في المتلقين وإقناعهم بمضمون خطابه [٢] .

وقد تداخلت البحوث اللغوية والبلاغية والأسلوبية والأدبية في الدراسات الحديثة، وظهرت اللسانيات التي تعد انصهارًا بين عناصر من هذه العلوم، وهذا أقرب إلى طبيعة النص الذي يحمل ملامح تدخل في مجال بحثها، فهذه العلوم أسهمت فيه، وتحليله يتطلب البحث عن عناصر ها فيه للوقوف على أسراره [٣].

وموضوع علم اللغة النصي دراسة النصوص في ضوء عناصر الاتصال ودراسة الوحدات اللغوية (الوحدات الصرفية والنحوية والمعجمية)، وعلم اللغة النصي أعم من علم اللغة الجملي، فهو لا يدرس أبنية النص فقط بل يدرس صفات التوظيف الاتصالي للنصوص، فيدرس ظواهر الاتصال ويجعلها مجال البحث، والعلاقة تكاملية بين علم اللغة النصي وعلم اللغة الجملي، فالأول يتخذ من الثاني مدخلاً لدراسة النص إلى جوار العناصر غير اللغوية التي شاركت في إنتاج النص[٤]

وقد ظهر في ضوء الدراسة الكلية للنص ما يعرف بنحو النص، وهو النحو الذي يدرس النص في ضوء وحداته اللغوية الكبرى، فيحلل الجملة في ضوء علاقتها بما يجاورها، ويدرس التشابك بين الجمل، فيدرس الوظيفة الدلالية للعناصر النحوية ويربطها بمضمون النص الكلي، وقد استفاد في ذلك من علم اللغة الوصفي، والوظيفي، والتركيبي (البنائي)، فقد أسهمت جميعها في تحليل النصوص، واستفاد منها علم اللغة النصي مثلما استفاد من نظرية الاتصال [٥] . وقد ازداد تحليل النص نضجًا بما قدمه زيلج هاريس Harris من دراسات تحليلية منهجية في النصف الثاني من القرن العشرين وقد عرف هذا بين الباحثين بتحليل الخطاب Discourse Analysis[٦]، وقد حلل النصوص في ضوء ظروف إنتاجها والمشاركين فيها

---

(١) ارجع إلى: علم اللغة والدراسات الأدبية ، برند شبلنر، ترجمة الدكتور محمود جاد الرب، ط دار المعارف، ص ١٦٤، وبلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٧٦ .

(٢) بلاغة الخطاب، ص ٢٥١ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤) مدخل إلى علم اللغة النصي، ص٩.

(٥) ارجع إلى: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، سعد مصلوح، مقالة في الكتاب التذكاري المهدي إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكراه الثانية ، جامعة الكويت، ١٩٨٩م ص ٤٠٨ ، وعلم لغة النص، سعيد بحيري، ١٩ ، ٢٠ .

(٦) ارجع إلى: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، مقالة بمجلة جامعة الكويت كلية الآداب، ١٩٨٩م– ١٩٩٠م، ص٤٠٨، وقد ظهر كتاب هاريس **Discourse analysis** عام ١٩٥٢م ، وارجع إلى لغة الخطاب السياسي، ص٤٠، ٤١ .

والمؤثرات التي تركت أثرًا فيها، ولقد لقي هذا المنهج قبولاً في الدراسات العربية المعاصرة، وقد كانت الدراسات العربية المعاصرة تدرس بنية النص وحدها دون العناصر الخارجية التي أثرت في هذه الأبنية، والبلاغيون القدماء فسروا النصوص في ضوء سياقها اللغوي وسياق المقام، ورأوا أن البنية اللغوية وحدها لا تكفي في فك شفرات النص والوقوف على أسراره والمقصد منه، وهاريس رائد هذا الاتجاه في الغرب، وقد سبقه فيه مفسرو القرآن الكريم في تفسير النص القرآني، وكان له صدى عند بعض علماء البلاغة في معالجة بعض النصوص، بيد أن معظم مفسري النصوص الشعرية لم يتجاوزوا بنية النص الشعري، فقد بحثوا المعنى وعالجوا بعض قضايا النحو والبلاغة، وعدّوا شخصية الشاعر وأسباب إنتاج النص خارج البحث الأدبي واللغوي، واكتفوا بترجمة عن حياة الشاعر ومن قيل فيه النص دون أن يبحثوا علاقة الشاعر بالنص والعوامل الخارجية التي أسهمت في إنتاجه ، وقد كانت دراسة المعنى والنحو والبلاغة في النص الشعري عرفًا عامًا بين الشارحين والنقاد أيضًا، وكان هذا تقليدًا انتهجه شيوخ الأزهر في شرح متون الدواوين وبعض القصائد التي درّسوها لطلاب الأزهر، وقلدهم في ذلك بعض أساتذة الجامعة المصرية في بدء نشأة الجامعة، فمعظمهم استقدمتهم الحكومة من الأزهر أو تلقوا تعليمهم في الأزهر وقلدوا أساتذتهم ، فقد بقي البحث محصورًا في أبنية النصوص وصياغتها ، حتى تأثر بعض الباحثين المعاصرين بالدراسات النصية الغربية فبحثوا النصوص في ضوء العناصر الاتصالية التي شاركت في إنتاج النص.

وسبب النزول يعادل ظروف إنتاج النص، وقد أجمع العلماء على أن معرفة سبب النزول يساعد على الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال ويعين على فهم النص[1]. وبحثوا مكان نزول النص (المكي والمدني والحضري والسفري ..) وزمانه (النهاري والليلي والصيفي والشتائي ، وما قبل الهجرة وما بعدها ..) ، ومعرفة من نُزلت فيهم الآيات أو من يتعلق بزمن النزول، وموضوع النص [2] ، وقد توقف البحث العلمي

---

(١) ارجع إلى: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جـ٢/١٠٨. قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمُسبَّب. وقد ذكر السيوطي وجوهًا من التفاسير التي ذهب أصحابها إلى المعنى النصي دون معرفة سبب النزول، فأخطأوا عين التفسير الذي عرف من سبب النزول. الإتقان جـ٢/١٠٨ .

(٢) الإتقان، جـ٢، وقد تناول السيوطي في هذا الجزء هذه الموضوعات وأثرها في التفسير.

والتطور، فوقف العلماء عند الشروح التقليدية والمتون القديمة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى وفد بعض الباحثين إلى أوربا، واطلعوا على مناهج البحث الحديثة فيها، فوظفوها في البحث وتأثروا بالمدارس الغربية في العلوم الإنسانية، واستفادت الدراسات اللغوية والأدبية من مناهج البحث الغربية فتطور البحث فيهما، وظهر اتجاه يجمع بينهما في الدراسة، فقد اتجه بعض الباحثين إلى توظيف العناصر الأدبية والبلاغية في التحليل اللغوي، وظهر علم الأسلوب الذي تتنازعه الدراسات اللغوية والدراسات البلاغية، والدراسات الأدبية ، لأنه أفاد منها، فاجتمعت فيه عناصر لغوية وبلاغية وأدبية، فلا يخلو نص أدبي من هذه العناصر.

وقد كانت الدراسات اللغوية قديمة معنية بدراسة الأصوات والأبنية والجمل والدلالة فلا تتجاوزها إلى المعنى العام للنص، أو اختلاف الأساليب وأثرها في المعنى فهذا من اختصاص علم البلاغة .

وقد بحث عبد القاهر الجرجاني العناصر النحوية ووظائفها وأثر اختلافها في المعنى وربط بينها وبين العناصر البلاغية [1] ، فجمع بين علم النحو وعلم البلاغة، فربط بين التركيب والمعنى و لم يفصل بين العناصر النحوية والدلالة، فالمعنى أساس التركيب وما لا يقبل معناه لا يجوز تركيبه، وكتاب «دلائل الإعجاز» يمثل مرحلة مبكرة في الدراسات التي اعتدت بالمعنى في بحث الجمل، وقد سلكت هذا الاتجاه الدراسات اللسانية الحديثة والأسلوبية، ويعد عبد القاهر الجرجاني مؤسس هذا المنهج مستفيدًا في ذلك من علم النحو وعلم البلاغة، بيد أن بعض الباحثين المحدثين نالوا من علم النحو العربي بدعوى أنه كان شكليًا لا يتجاوز تركيب الجملة، وهذا رأي فيه نظر؛ لأن علم البلاغة كان متممًا للنحو الذي بحث هذا العناصر التركيبية، فبحث الأخير معاني الجمل وأثر اختلافها في المعنى، ولهذا بحثوا بعض القضايا النحوية في الكتب التي صنفت في البلاغة .

ولقد رأى الدكتور تمام حسان أن الدراسات البلاغية اعتدت بدراسة التراكيب اعتدادها بالمعنى المجازي ، وأنهم بحثوا تراكيب النص في ضوء سياقه العام ومقاصده ،

---

(١) ارجع إلى: دلائل الأعجاز، حققه الشيخ شاكر، ط الهيئة المصرية للكتاب، وقد حققه الشيخ رشيد رضا وعلق عليه من قبل الشيخ شاكر .

ولكن الدكتور حسان وجه نقدًا للمنهج التراثي في معالجة معاني النصوص؛ لأنه – حسب اعتقاده – تناول شرح الألفاظ بعيدة عن النص، فبحث الوحدات العضوية مستقلة عن سياقها العام، فاكتفى بشرح الألفاظ ودلالتها، وما كان لهذا المنهج في شرح النصوص أن يؤدي إلى الفهم الكامل لدلالاتها ومقاصدها، ويصدق ذلك حتى على عمل المفسرين وشرحهم للنص القرآني [1] .

وهذا الرأي يواقع بعض الكتب التي تناولت مفردات القرآن وغريبها [2]، وهي لبعض اللغويين الذين انشغلوا بجمع المادة اللغوية وشرحها، وهي البداية التي ابتدأ بها المفسرون شرح ألفاظ القرآن الكريم، وهذا ما كان يتطلبه العصر لقرب عهدهم بعصر النبوة والصحابة رضوان الله عليهم، ثم ظهرت الحاجة إلى استنباط الأحكام من النص والقياس على أحكام القرآن الكريم، وقد تطلب ذلك فهمًا ووعيًا بعرف العربية ومعرفة ظروف نزول النص، والفقهاء هم رواد الدراسات النصية؛ لأنهم بحثوا دلالة النص في ضوء زمن النزول ومكانه وسبب نزوله واستنبطوا الأحكام في ضوء الفهم الكلي لكل نص تعلق بحكم، ثم أتى بعدهم البلاغيون فبحثوا التراكيب في ضوء الدلالة العامة وبحثوا أساليب الجمل وترتيبها والعلائق بين الألفاظ والتراكيب، والاحتجاج بكتب غريب القرآن أو مفردات القرآن وغريب الحديث أو مفرداته والشروح اللغوية لدواوين الشعر لإثبات اهتمام علماء العربية بالألفاظ والوحدات الصغرى فيه تجنى على تراث الأمة وجهود العلماء، فالكتب التي سلكت هذا المنهج غايتها تبسيط المعنى وتقريبه، ومن ثم تعقبت الغريب فقط دون شرح النص، وهذه المؤلفات كانت موجهة للمبتدئين، فهي كتب تعليمية للمتعلمين، وليست للصفوة فتوهم المتأخرون أنها تمثل إنتاج هذا العصر، وليست إلا كتبًا تعليمية، وهذا ما احتاج إليه الطلاب وما كان يلقى عليهم في مجالس التعليم، وقد ذكر الدكتور حسان بعضًا من الألفاظ التي تدل على ذلك قال: «وإنما كان الشراح يبنون شروحهم على المفردات فترى الواحد منهم يعرض للفظ المفرد بعبارة «قوله كذا ...» ثم يغوص في

---

(١) ارجع إلى: المقدمة التي كتبها الدكتور حسان في صدر ترجمة كتاب النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ط دار الكتب، ط١٤١٨/١هـ، ١٩٩٨م ص ٤، ٥.

(٢) من أشهر هذه الكتب الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخي، والأشباه والنظائر للدامغاني، وبصائر ذوى التمييز للفيروز آبادي.

الدلالة المفردة لهذا اللفظ مع ندرة الانتباه إلى العلاقات العضوية بين أجزاء النص، وما كان لهذا المنهج في شرح النصوص أن يؤدي إلى الفهم الكامل لدلالاتها ومقاصدها»[1].

وهذا منهج المعلمين في التدريس وانسحب على تفسيرهم القرآن الكريم والشعر، وليس هذا منهجًا عامًا في التفسير فله مدارس بعضها سلك مسلكًا لغويًا، فاهتم أصحابه بمعاني الألفاظ والتراكيب، وهم الذين يدخلون في قول الدكتور حسان، وبعضهم نحا نحوًا بلاغيًا، فاهتموا بالأساليب والمعاني والصور وأثرها في التعبير والمتلقي، وبعضهم بحث ما وراء النص الشكلي، فتأول النصوص وبحث أسرار المعنى وهؤلاء أصحاب التأويل، وبعضهم اكتفى بالأثر في شرح المعنى وشرح النص بالنص وتورع عن القول فيه برأيه [2]، وبعضهم تتبع آيات الأحكام، وهم الفقهاء، وبعضهم عالج المتشابه وأسباب النزول، وبعضهم عالج قضايا اللغة والنحو، وبعضهم عالجه معالجة بلاغية وأدبية، وهم أقرب إلى علم اللغة النصي، ويعد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) نموذجاً رائداً فى الدراسات النصية، فقد درس الدلالة والجمل والسياق اللغوى وغير اللغوى، وعناصر ترابط النص فى مختاراته النثرية والشعرية. وبعض الباحثين المحدثين يرون أن علم اللغة النصي أو علم لغة النص لم يعرفه القدماء، ومن أدلتهم لهذا الزعم عدم وجود لفظ المصطلح في كتب القدماء، ثم يرجعون عن قولهم هذا عندما ينقلون عن عبد القاهر الجرجاني (كتابه: دلائل الإعجاز) وقد تقصوا منهجه في دراستهم الحديثة، ويحتجون برأيه في نظريته المتقدمة «النظم» فقد عالج فيها العلاقات بين الألفاظ في الجمل، وعالج العلاقات بين الجمل في سياقها أو في نص يجمع بينها، ونجد عبد القاهر نحويًا خالصًا في مؤلفاته النحوية وبلاغيًا خالصًا في مؤلفاته البلاغية غير خالطٍ بينهما بيد أنه جمع بين العلمين (النحو والبلاغة) في كتابه " دلائل الإعجاز "، فقد ربط بين النحو والبلاغة في دراسة النصوص، وبحث عن معاني النحو في الجمل، وبحث علاقة الجملة بالسياق، والدراسات الحديثة مزجت بين دراسة الجمل ودراسة

---

(١) النص والخطاب والإجراء، ص ٤ ، ٥ .

(٢) ارجع إلى: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، الدكتور إبراهيم شريف، دار التراث، ط١/١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، وقد تناول مناهج المفسرين حديثًا وتأثرهم بالمناهج السابقة عليهم وتناول اتجاهات حديثة، وارجع إلى التفسير والمفسرون للذهبي، وارجع إلى البدائع في علوم القرآن، جمع وتحقيق يسري السيد، دار المعرفة، بيروت.

المعاني، وهذا الذي سبق إليه عبد القاهر في الدلائل، وتناوله ابن جني في أجزاء من كتابه «الخصائص»، وقد سلك هذا المنهج السُّهيلى فى «نتائج الفكر فى النحو»، وتأثر به ابن القيم الجوزية فى«بدائع الفوائد»، وقد عالجا قضايا النحو فى ضوء المعنى.

والذين يرمون القدماء بالحرفية (الشكلية) في معالجة النصوص في علم النحو فقط، وهذا علم معني بدراسة التركيب في الجملة وما يتعلق بها .

ودراسة العلاقات بين الجمل وعلاقتها بالعالم الخارجي من اختصاص علم البلاغة، فالمعاني من عمل البلاغيين، وبناء الجملة الشكلي والعلاقة بين أجزاء الجملة من عمل النحاة، لأن القدماء فرقوا بين الدراسة الشكلية للجمل والعلاقات الإسنادية التي تربط بين أجزائها، والعلاقات التي تربط بين الجمل، فدراسة الجملة بحثت في مجال النحو، وجعلوا علم البلاغة معنيًا بدراسة معاني الجمل وأساليبها والعلاقات التي تربط بين الجمل، ومن ثم بحث عبدالقاهر شكل الجملة في النحو وبحث معاني الجمل في البلاغة، وهى عنده متممة لعلم النحو، ولهذا تصدرت الموضوعات النحوية بعض كتب البلاغة، وحديث البلاغيين عن الجملة ومجموع الجمل لا يخلو من الحديث عن الجوانب النحوية التي تحكم هذا الجملة موضوع البحث، وهذا لا يعني إهمال النحاة المعاني، فقد أقاموا ترتيب الألفاظ في الجمل على المعنى، والتراكيب التي لا تحقق معنى مفيدًا ليست بجمل، فالجملة قول مفيد، فإن لم تحتمل إفادة لا يعتد بها، وبعض العناصر التى تفسر فى ضوء المقام الخارجى مثل التحذير والحذف والإشارة وضمير المخاطب وغير ذلك من العناصر اللغوية التى تفسر خارج النص، وهذا يؤكد اهتمام العلماء بالعلاقات النصية، وأئمة البحث في ذلك علماء الفقه والتفسير والذين اشتغلوا بالأدب والبلاغة .

وقد بحث القدماء الترابط النصي، فبحثوا الروابط التي تتحقق من العلاقات النحوية بين الألفاظ والجمل والإعراب، وبحثوا كذلك الروابط اللفظية والروابط الدلالية وتتمثل في السياق، والجوامع العقلية كالتعليل والسبب والتسلسل المنطقي والاستدلال بأدلة لفظية وأدلة من خارج النص، والجوامع المجازية ومنها توظيف العناصر البلاغية كالتشبيه والتمثيل والتصوير، وهذا أبلغ تأثيراً.

وقد بحث البلاغيون ذلك في ضوء العلاقات النحوية في الجمل والتراكيب، وقد

تجاوزوا الجملة الواحدة إلى ما جاورها وعلاقاتها بها بيد أن دراستهم الشعر عالجت المعنى في كل بيت لاستقلاله بوحدة من المعنى، وهذا ليس مطردًا، فبعض الأبيات يربطها معنى واحد، وبعض القصائد دارت في فلك موضوع واحد فتشابكت أبياتها وسلم كل بيت منها إلى الذي يليه المعنى، وتحققت فيها الوحدة الموضوعية، وبعض القصائد الطوال تناولت موضوعات شغلت الشاعر وأثرت فيه، فاستخرجها شعراً.

ودعا علماء العربية إلى انسجام الأصوات في الكلمة الواحدة فلا تتنافر، ودعوا أيضاً إلى انسجامها مع غيرها، والانسجام بين الألفاظ يسمى سبكاً.

وقد دعا العلماء إلى ائتلاف الألفاظ في البيت الواحد، وعابوا ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، لأنها متنافرة في مخارج الأصوات، كأن يجمع بين أصوات متباعدة المخرج، وإذا كانت فالكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيًا موفقًا لنطق اللسان فيتعثر المتكلم في نطقها لثقلها وتباعد مخارج أصواتها، هذا إلى جانب غرابة المعنى ووحشية اللفظ وجلافته فينبو عنه اللسان وتمجه الأسماع [1]، وائتلاف الأصوات وانسجامها يجعل الكلام سهلاً يجرى على اللسان دون أن يتعثر، وائتلاف الألفاظ قائم على انسجام الأصوات في الكلمة وانسجامها مع ما جاورها.

وقد ربط الجاحظ بين تماسك النص وانسجام بنية الألفاظ الصوتية، فالسبك يقوم على الانسجام الصوتي في بنية الكلمة وانسجامها مع ما جاورها قال: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فُيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغًا جيدًا وسُبك سبكًا واحدًا، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان"، فالسبك يكون في انسجام البنية الصوتية فتلتحم الألفاظ، فتجرى على اللسان سهلة، وقد عالج الجاحظ ذلك على مستوى البيت وهو يتحدث عن الكلام غير المؤتلف .. وكذلك حروف الكلام، وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقة لمسًا ولينةً المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة رطبة متواتية سلسلة النظام خفيفة على اللسان، حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كان الكلمة بأسرها حرف واحد [2]. حديثه هذا عن البيت وليس عن القصيدة تامة؛

---

(١) ارجع إلى البيان والتبيين، ص٥٠ (ط العصرية). والمثل السائر، جـ١/١٥٩ .

(٢) البيان والتبيين، ص٥٠ (ط العصرية).

لأن البيت عند السابقين يمثل وحدة مستقلة ينتهي مع القافية، واستحسنوا الأبيات التي استوفت المعنى تامًا. وقد سرد الجاحظ أبياتًا وعلق عليها وأبان عن وجوه الجودة والذم، فاستحسن منها: المتماسك الذي بينه وشائج في اللفظ والمعنى فيسلم بعضه إلى رقاب بعض في سلاسة دون اضطراب، ونسج الشاعر قوله في لفظ سهل المخرج غير متنافر مع ما يجاوره، فقارب بين المخارج وهجر حوشي اللفظ وغريبه. واستحسن أبو هلال العسكرى شعرًا للنمر بن تولب، فقال: «فهذه الأبيات جيدة السبك حسنة الرصف» [(١)]، ورصف الألفاظ إجادة تنسيقها مع ما يجاورها وحسن صياغتها.

وقد استحسنوا ترابط البيت، لأنه لبنة في بناء القصيدة، وقد كانت وحدة البيت مطلبًا رئيسًا لاستحسانه، قال أسامة بن منقذ (ت٥٣٠هـ) في تعريف السبك: «وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كقول زهير [بن أبي سلمى] [(٢)]:

يطعنُهُم ما ارتموا حتى إذا اطَّعنوا ضارَبَ حتى إذا ما ضارَبُوا اعتنقا

ولهذا قال: خير الكلام المحبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض»[(٣)]، وهذه المعالجات على مستوى اللفظ، ومن ثم عالجوا الحروف (الأصوات) والأبنية والجمل والروابط التي تربط بينها في بيت واحد، وهذا لا يعني إهمال وحدة القصيدة، فوحدة القصيدة وحدة موضوعية، تقوم على مضمون القصيدة العام، فالشعراء يجعلون الموضوعات بسبب من بعضها، فيربطون بين مضامين النص، فينتقل بين مضامين النص رابطًا بينها وجامعًا بين أجزائها، فتسلم الفكرة إلى أختها في ترتيب سلس. قال ابن طباطبا: " إن للشعر فصولاً كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى .. بألطف تخلص و أحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله " [(٤)]،

---

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق على البجاوي، وأبو الفضل إبراهيم، ط٢/دار الفكر العربي ص ١٧٥ .

(٣) ديوان زهير، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٥، يقول: إذا ارتمى الناس بالنبل دخل فيه يطعنهم، فإذا تطاعنوا، ضاربهم بالسيف فيعتنق قرنه، فهو يزيد عليهم فى كل حال.

(٣) البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ومراجعة إبراهيم مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد (د.ت)، ص ١٦٣ .

(٤) عيار الشعر، ابن طباطبا، راجعه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م ص١٢.

وقد دعا حازم القرطاجني إلى إحكام مباني أجزاء النص وتحسين هيئاتها ووصل بعضها ببعض[1]. فيأخذ بعضها بأعناق بعض، فيقوى بذلك التأليف المتلاحم الأجزاء[2]، وهذا ما يسميه المحدثون بالترابط النصي أو الوحدة النصية.

وبناء القصيدة التراثية العمودية لا يقوم على روابط لفظية بين كل أبيات القصيدة، لأن كل بيت يمثل وحدة متماسكة تنتهي بالقافية، ولهذا عالج القدماء الروابط النحوية واللفظية في البيت الواحد، والقصيدة العمودية التراثية تختلف عما يسميه المحدثون قصيدة النثر التي تشبه في ترابطها الفقرة النثرية، وهذا لا يعني فقدان الترابط في القصيدة التراثية، فبناء القصيدة يقوم على ترتيب مألوف انتهجه معظم الشعراء وتمثله من أتى بعدهم: المقدمة، وهي استهلال يبتدئ به الشاعر، ثم يخرج من المقدمة إلى الموضوع الذي يليها ويجعله بسبب منها، ويربط المقدمة وما تلاها برابط سببي أو معنوي أو رابط حرفي معللاً سبب دخوله في هذا الموضوع، كما فعل كعب في «بانت سعاد» تحول من الحديث عن سعاد إلى وصف الناقة والحديث عن وصفها وسرعتها، والعلاقة بين الاستهلال بسعاد والحديث عن الناقة أن سعاد هجرته ورحلت إلى أرض بعيدة وهذه الأرض يتطلب السفر إليها ناقة لها صفات خاصة، ثم تناول هذه الصفات، فجعل بين المواضيع وصلات تصل بينها، وسوف نعالجها في حديثنا عن الرابط المضموني. ولا شك أن مناهج التحليل الحديثة أفادت الدرس العربي بيد أن بعضها ينحو نحوًا نظريًا، والدراسات التطبيقية قليلة، ومازالت في مرحلة النضج وليس لها ملامح واضحة يمكن العمل بها، فكل باحث يختار لنفسه مذهبًا يجتهد فيه، ولا شك أن بعض البحوث التحليلية فيها جهد بيد أن بعضها تفتقد المنهج والتطبيق وبعضها بعيد عن عرف العربية، وهذه الدراسات غير واضحة، ومن ثم عوّلت على جهود القدماء وبعض الدراسات الحديثة التي توافق عرف العربية، وقد سلكت هذا المنهج فى دراستى "الخطاب السياسى المعاصر[3] "، فقد استفدت من

---

(١) ارجع إلى: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢/١٩٨١م، ص ٢٨٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، دار المعرفة ، بيروت ، ج١/١٣١، ١٣٢ .

(٣) لغة الخطاب السياسى، دار النشر للجامعات، وصدر آخر بعنوان خطاب السلطة الإعلامى، عن الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى.

نظرية الاتصال ومعطيات علوم اللغة، ودراسة الروابط النصية تستوجب الاستعانة بعلوم النحو والبلاغة والدلالة، والإفادة من بعض جهود الغربيين.

وبعض المحدثين درسوا العربية في ضوء الدراسات الغربية وحملوها على اللغات الغربية وبحثوا عن خصائص اللغات الأخرى فيها ، فغالوا في تحليل نصوصها، والعربية لها خصائصها التي تعرف في ضوء قواعدها وأساليب التعبير في الخطاب العربي. وقد أثر كتاب[1] "Cohesion in English" (الربط في الإنجليزية) لهاليداي ورقية حسن في بعض باحثي علم اللغة النصي العرب، فقد تمثلوا ما فيه وتتبعوا أثره قدمًا بقدم في دراسة نصوص العربية، وتجلى ذلك في دراسة الربط في العربية فزادوا عليها عناصر في الإنجليزية ليست فيها [2] .

وقد اتجهت الدراسات الحديثة إلى وضع معالم واضحة معولين على جهود القدماء ومناهج المحدثين، وظهرت في الدراسات الحديثة مصطلحات تدخل في حقل دلالي واحد في اللسانية الحديثة، وهي :

السبك، والحبك ، والاتساق، والائتلاف ، وقد ترددت هذه المصطلحات في كتب البلاغيين القدماء في سياق حديثهم عن الصياغة اللفظية والتأليف بين المعاني والمقاربة بينها؛ ليكون النص مسبوك اللفظ ومحبوك المعنى، وقد دخلت هذه المصطلحات حقل اللسانيات الحديثة التي أفادت من الدراسات الأدبية والبلاغية والأسلوبية، فقد انصهرت هذه الدراسات اللغوية، وعرفت في الاصطلاح الحديث باللسانيات، وتنازع الدراسات الأسلوبيةَ علم اللغةُ والنقدُ والبلاغة؛ لأن الدراسات الأسلوبية محصلة نتاج هذه العلوم.

والسبك مصطلح بلاغي قديم، وقد وظفه المحدثون في الاصطلاح الحديث بمفهوم معاصر: تلاحم الأجزاء Cohesion والترابط النصي، والسبك لغة من سبك الشيء:

---

(١) **Halliday,M.A.K. and R.Hasan: (١٩٧٦) cohesion in English, longman, .London.**

(٢) ومن ذلك حديثهم عن الربط البعدي أو الإحالة إلى متأخر ولا يرد في العربية إلا نادرًا لضرورة المعنى، ومن ذلك إدخالهم التشبيه وصيغ التفضيل في الإحالة، وليست من هذا المعنى بل تدخل في وسائل الربط. ارجع إلى نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، الدكتور أحمد عفيفي، ص ١١٨. وتورط محمد خطابي في كتابه «لسانيات النص» في هذا فجعل النوع الثالث من الإحالة المقارنة (يريد التفضيل مثل: «أكثر منك» لسانيات النص، ص ١٨. وقد اعتمد في دراسته على **Cohesion in English** .

أفرغه في قالب صغيرًا أو كبيرًا، فبعض العلماء استخدمه في تعليقه على بيت شعر وبعضهم ذكره في حديثه عن بلاغة الخطاب القرآني [1] .

واستخدمه النقاد في تقييم بعض الأعمال الأدبية وعلى رأسها الشعر، فجوده الشعر في تماسك لفظه وائتلافه وسهولته، وقد استخدم الجاحظ هذا المفهوم في تعليقه على بعض الأبيات، فالشعر الجيد المتلاحم الأجزاء، سهل المخارج، «فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغًا جيدًا وسبك سبكًا واحدًا، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان[2]، والسبك يعني الرصف، وهذا في إجادة التنسيق وحسن الصياغة[3]، ويعني أيضًا اللحمة التي تربط بين أجزاء الكلام [4] ، وهذا الترابط في اللفظ والمعنى، والسياق اللغوي أساس استحسان اللفظ في موضعه مما يجاوره، قال ابن الأثير: " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه، وجل نظره، فمن ذلك قوله تعالى: **﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾** [الأحزاب:٤] وقوله تعالى:**﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾** [آل عمران : ٣٥] فاستعمل الجوف في الأولى والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ووزنهما واحد أيضًا، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل؟!»[5].

والسبك بين الألفاظ يراد به انسجامها، جاء ذلك في «باب الانسجام» عند أبي الإصبع المصري: " وهو أن يأتي الكلام منحدرًا كتحدر الماء المنسجم، بسهولة سبك وعذوبة ألفاظ وسلامة تأليف حتى يكون لجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره» [6].

---

(١) اللسان : مادة سبك.

(٢) البيان والتبيين، ص ٥٠ (ط العصرية).

(٣) ارجع إلى: الصناعتين، ص ١٧٥.

(٤) منهاج البلغاء، ابن طباطبا، ص ٢٢٨، والبديع في نقد الشعر، ابن منقذ، ص ١٦٣.

(٥) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، جـ١/١٦٤ .

(٦) تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع، تحقيق حفني شرف، دار إحياء التراث جـ٢/٣٥٢ .

وقال في حديثه عن اطراد الألفاظ: «وهو أن تطرد للشاعر أسماء متواليـــة يزيـــد الممدوح بها تعريفًا؛ لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه تأتي منسوقة صحيحة التسلسل غـــير منقطعة من غير ظهور كلفة على النظم ولا تعسف في السبك بحيث يـــشبه تحـــدرها باطراد الماء لسهولته وانسجامه» [١].

والكلام المنسجم بسهولة سبك وعذوبة ألفاظ وسلامة تأليف له وقع في النفوس وتأثير في القلوب، والتأثير في المتلقي مفتاح إقناعه بمضمون الخطاب[٢]. وهذا الكـــلام يتحدر كتحدر الماء المنسجم لسهولته وعذوبة ألفاظه وعدم تكلفـــة ليكـــون لـــه في القلوب موقع وفي النفوس تأثير [٣] .

والشعر الجيد الذي اتسقت ألفاظه في سلاسة ويسر دون تنافر أو غرابة أو مـــا تلاحمت أجزاؤه سهل المخارج فيجرى على اللسان ، وقال أسامة ابن منقذ: «وأمـــا السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره ...»، ثم قـــال: «.. خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض » [٤] ، وهذا المفهوم قريب من مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قال: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»[٥]، وقال: «... لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتُجْعل هذه بسبب من تلك» [٦]. وهذا لا يختلف عن مفهوم السبك في اللفظ، والنظم عنـــده في اللفظ، واختيار الألفاظ بمقتضى المعنى الذي يستوجب وجودها، وترتيبها في الجملـــة وهذا مقيد بوظائفها النحوية، فالمتكلم يتوخى معاني النحو في نظمه اللفظ[٧]. وهـــذا مقرون بالمعاني، فالكلمة توضع في الجملة على المعنى الذي أريد بها، فترتيب الألفـــاظ

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ص ٥٣٤ .

(٢) ارجع إلى: بديع القرآن، ابن أبي الأصبع ، تحقيق حفني شرف، دار نهضة مصر، ط٢ ١٩٧١م، ص ١٦٦، وتحرير التحبير، ابن أبي الأصبع، جـ٣/٤٢٩، وما بعدها وجـ٢/٣٥٢ .

(٣) الكليات، أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، ص١٩٦ ومثل لذلك بقول أبي تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

(٤) البديع في نقد الشعر،أسامة بن منقذ،تحقيق أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص١٦٣

(٥) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق شاكر، ط ٢٠٠١ م، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٦) دلائل الإعجاز، ص ٥٥ .

(٧) دلائل الإعجاز، ص٥١، قال: ويستبعد أن يقال: «هذا كلام قد نظمت معانيـــه»، فالمعـــاني ترتـــب في الـــنفس، ص٥٢،٥٣.

ليس عن تواليها في النطق عبثًا بل على المعنى الذي اقتضاه العقل، بيد أن النظم توصف به الألفاظ فيقال كلام منظوم، والعلم بمواقع في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق [١].

وقد فهم الدكتور تمام حسان من كلام القدماء أن «السبك إحكام علاقات الأجزاء ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة وقرينة الربط النحوي من جهة أخرى واستصحاب الرتب النحوية إلا حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبي ورعاية الاختصاص والافتقار في ترتيب الجمل» [٢] . فالسبك في انسجام الألفاظ التي تكون في معنى واحد، وانسجام الألفاظ تآلف ألفاظها ومعانيها، وذلك لعدم تنافرها وخلوها من التعقيد، فتتسق أجزاء الكلام على المستوى اللفظي. والسبك في المعجم الحديث يعني الصياغة Craftsmanship ويعني طريقة تهيئة الكلام وترتيبه، في وحدة فنية ذات دلالة وتأثير [٣] .

وهذا التعريف متأثر بمذهب الجاحظ الذي تجاوز المعاني والأفكار إلى حسن الصنعة من جودة وتشبيه وحسن الاستعارة والصورة المبتكرة.

والسبك Cohesion عند المحدثين: التماسك أو الترابط اللفظي الظاهر على سطح النص من خلال وسائل لغوية تربط بين أجزاء الكلام، فيتحقق التلاحم النصي، ويسميه تمام حسان السبك وكذلك سعد مصلوح، ويريدان به الترابط الظاهر على سطح النص بالوسائل اللغوية نحو: الإحالة والاستبدال والتكرار والحذف. ويسميه محمد الخطابي الاتساق، وآخرون يسمونه التضام، وهي مصطلحات تراثية لها دلالتها في كلام القدماء [٤] .

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٥٥ .

(٢) قراءة جديدة لتراثنا النقدي، عدد٥٩ المجلد الآخر، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩٩٠م بحث «موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية»، ص٧٨٩.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ص٢٢٨، ويرد هذا المعجم أصل هذا المذهب إلى الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وقد ذهب إلى أن الكلام الجيد ما كان فيه أثر الصنعة من جودة التشبيه وحسن الاستعارة والصورة المبتكرة وليس إلى ما تضمنه من معان وأفكار.

(٤) ارجع إلى: النص والخطاب والإجراء، دى بوجراند، ص١٠٣ لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م، ص٥، مدخل إلى علم لغة النص، مشكلات بناء النص، الأزهر الزناد، ترجمة سعيد بحيري، مؤسسة المختار، ط١/٢٠٠١، ص٢٥، مدخل إلى عمل اللغة النصي، إلهام أبو غزالة وعلي خليل، الهيئة المصرية للكتاب، ط١/١٩٩٩م ص٩٣، نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية، الدكتور سعد مصلوح، بحث بمجلة فصول، م١٠، عدد ٢،١، أغسطس١٩٩١م، الهيئة العامة للكتاب ص١٥٤، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة (د.ت) ص٩١.

ومصطلح الحبك Coherence له صلة بالسبك، ويراد به : الالتحام بين أجزاء الخطاب، وجاء في معناه الاتصال والامتزاج والالتئام والالتحاق والتلاحم والاتساق[1]

ويراد بذلك الترابط الدلالي بين سلاسل المنطوقات المتواليات فتحقق عنه نصًا متماسكًا ، وهذا يتحقق عنه انتظام المعاني واتصال الكلام، فيلحم بين أجزاء النص ويجعل بينه انسجاماً، قال أبو هلال العسكري: «ينبغي أن تجعل كلامك مشتبهًا أوله بآخره، ومطابقًا هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعه مع أختها، ومقرونة بلفقها ...» يريد بذلك انتظام المعاني واتصال الكلام والملائمة بين أجزاء الكلام، فتقع الكلمة موقعها مما يجاورها فيناسب اللفظ اللفظ ويشاكله.

والحبك والسبك قريبان في المعنى، فالسبك الالتحام بين أجزاء الكلام والحبك التأليف بين معانيه والملائمة بينها، فالسبك صناعة الجسد في قالب لغوي حسن، والحبك لحمته الداخلية، حتى يكون جسدًا سويًا تسرى فيه روح الإبداع، فيؤاخى بين المعاني ويناسب بين الألفاظ، فيذكر المعنى مع أخيه الذي يلتحم معه، وذلك بسبك الألفاظ في قالب متماسك خلو من التنافر، فالسبك حسن اختيار اللفظ وجودة الصياغة والتئام اللفظ مع غيره ووقوعه منه موقعًا حسنًا لمناسبة بينهما في الدلالة واللفظ، فلا يعاظله ولا يكون حشوًا ، وذلك لوضوح المعنى وملائمة السياق، فيحسن نسجه ونظمه [2] .

والاتساق التماسك بين أجزاء النص، على مستوى اللفظ والمعنى، الاتساق اللفظي: ويكون في العناصر اللغوية التي تربط بنية النص، ومنها: الضمائر والإشارة وحروف العطف، ، والاتساق اللفظي في قوة ارتباط الجمل فيمسك بعضها بتلابيب بعض فتكون وحدة واحدة متسقة المعاني منتظمة المباني[3] ، والاتساق في المعاني التقريب بينها وحسن المناسبة. وقد بحث العلماء وظائف الروابط الحرفية والروابط

---

(١) كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١/١٣٧١هـ ١٩٥٢م، ص ١٤١، ١٤٢.

(٢) ارجع إلى: نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، الدكتور مصطفى النحاس، ذات السلاسل الكويت، ط١/١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص٥.

(٣) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي، دار المعرفة، بيروت جـ١/١٣١.

الاسمية والروابط المضمرة ووظائفها النحوية وأثرها في تماسك لحمة النص وبحثوا كذلك العلاقات بين الجمل وتشابكها وأثر ذلك في التحام أجزاء النص، وقد استلزم وصف النص بالتماسك البحث عن عناصر الربط فيه والمكونات السطحية المتحققة عن عناصر لغوية تقوم عليها التبعية النحوية التي تشكل بنية النص [1] فتماسك النص له طبيعة نحوية ودلالية واتصالية والترابط النحوي يتمثل في العلاقات الإسنادية في الجمل والروابط الحرفية مثل حروف العطف التي تتحقق عنها التبعية النحوية والروابط الاسمية مثل: الضمائر الظاهرة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وروابط مضمرة مثل: الضمائر المضمرة و الربط السياقي ولهذه الروابط أثرها في تماسك النص.

وتتحقق الوحدة النصية من خلال الربط النحوي ووسائله والتماسك الدلالي ووسائله والسياق التركيبي والسياق الخارجي (الموقف الاتصالي) وموضوع النص، فتماسك النص له طبيعة نحوية ودلالية واتصالية، ولقد تجاوز بحث النص في الدراسات الحديثة العناصر اللغوية، فزاد العناصر المؤثرة فيها، منها المرسل والمتلقي والموقف الاتصالي، فالنص مجموعة من الأحداث الكلامية أنتجها موقف اتصالي فيه منتج النص ومتلقيه ووسيلة اتصال، وهذا النص له دوافع ويهدف إلى مقاصد [2]. وهذا ما سبق إليه علماء المسلمين فى تفسير النص القرآنى وتبيين أسراره وأحكامه، ومُحكمه ومتشابهه. ودراسة النص في ضوء ظروف إنتاجه تكشف أسراره وتميط الغموض عن معانيه وتحقق النتائج المرجوّة من تحليله، فالنص المبتور عن ظروف إنتاجه ليس إلا بناء لغويًا يكتنفه الغموض، ويحتمل وجوهًا من المعنى، ومن ثم اتجه المفسرون في تحليل النصوص إلى بحث علاقة النص بظروف إنتاجه لمعرفة معانيه ومقاصده وزمن نزول النص، والعمل الأدبي يتأثر بمؤلفه وثقافته ومحيطه والظروف التي شاركت في إنتاجه.

***

(١) علم لغة النص، ص ١١٨، ١١٩.

(٢) ارجع إلى: علم اللغة النصى، المفاهيم والاتجاهات، دكتور سعيد بحيري، ص١٠٧: ١٠٩.